البنية الحجاجية للتناص

د. خليفة عوشاش
جامعة المسيلة

ملخص:
استهوى التناص الكثير من الدارسين فكتبوا في موضوعه ونقبوا في حيثياته بل جعله بعضهم مناط تشكل وتراكم المعارف في النصوص ووصفوه بالحتمية التي لا يمكنها أن تنفلت منه، وتتبعوا أنماطه المختلفة في كم هائل منها ، إلا أن تلك الدراسات النقدية النظرية والتطبيقية لم تتناوله من الناحية الحجاجية؛ الأمر الذي يريد هذا المقال الدفاع عنه والتنويه بأهميته.

النص الأدبي والحجاج

لما كانت الوظيفة الحجاجية وظيفة كامنة في بنية اللغة في مظاهرها التركيبية والدلالية والتداولية[1] و كان الحجاج _ فن الاقناع وطرائق الاستدلال _ حاضرا في كل نص تواصلي فإن النص الأدبي باعتباره ضربا من ضروب التواصل لا يخلو من حجاج .

ولعل الاستراتيجيات التي يوظفها النص الأدبي في محاصرة المتلقي من أجل توريطه واكتساح مناطقه بلغة الإقناع قصد تغيير مواقفه، ومن ثم توجيهه إلى سلوك معين دون سواه من السلوكات والمواقف التي تترصده بالتأثير فيه، تكون أكثر تعقيدا مما هي عليه في ضروب التواصل الأخرى من ناحية الاعتناء بالأهداف وخطط الإنتاج وكمية المعلومات ونوعيتها، ووضعيات المتلقين الذين تستهدفهم.

ولأن نظريات الحجاج متسعة الميادين ، وعلاقاتها بالنص الأدبي علاقات متشعبة، عمدنا إلى التركيز على ظاهرة التناص نظرا لأهميتها في بناء النص تواصليا من جانب، وكثرة الدراسات النقدية النظرية والتطبيقية التي أنجزت حولها من جانب آخر، وهي في الأصل دراسات معرفية ونقدية لم تتناول الظاهرة في إطار الدرس الحجاجي، ولهذا جاءت المقاربة لإضاءة هذا الجانب من الموضوع من خلال التطرق إلى الخصائص الحجاجية للنص ، ومفاهيم التناص، وآلياته الحجاجية.

1- الخصائص الحجاجية للنص:

مادام النص نوعا من البناء المعتمد على الكلمات والأفكار ، ولا يتم هذا البناء على محض الصدفة بل على احترام معايير المعمار وقواعده ، إذ النظام يلغي الفوضى ، ويضفي طابع الاتساق والانسجام ، ولأن الحجة وحدها لا يمكن أن تكون فعالة لمجرد أنها حجة جيدة ، بل ينبغي بالضرورة أن تصاغ الصياغة المناسبة [2] ،وأن توضع في الموضع المناسب.

وعليه فقد أجمع الباحثون في علم النص والحجاج على أنه يجب أن تتوفر في النص مجموعة من الخصائص الحجاجية [3] يمكن رصد أهمها فيما يلي:

أ- الانسجام:

النص الحجاجي يفترض أن يسوده الانسجام بين أقسامه الكبرى، وبين تفاصيله ودقائقه، فلا تنافر ولا تناقض بين المقدمات والنتائج، ولا بين الأجواء النفسية السائدة فيه، ولا بين المعاني والصور لأن كل تناقض أو تنافر يقوض الحجاج ويجهز على كل محاولة إقناع أو حمل على الإذعان[4] .

ب – الحياد والموضوعية :

يميز بيرلمان وتيتكا في هذا الصدد بين نوعين من التسليم والاقتناع أو القبول بالرأي المعروض؛ تسليم آت من الخارج حسب المقام ، وتعبر عنه كلمة Persuasion ، والتسليم المنبعث من داخل النفس وترجمه كلمة conviction وهذا النوع الثاني هو الذي ينتج عنه مستمع كوني حيث تلتقي أفهام العقلاء ، وهو موضوع الحجاج بمعناه الحق في نظرهما ؛ ففي إطاره تتحقق الحرية أي الإفلات من الإكراهات الخارجية هو في رأيهما حجاج غير ملزم non contraignant وهو وحده القمين بأن يحقق الحرية الإنسانية من حيث هي ممارسة لاختيار عاقل ، فإذا لم تكن الحرية مبنية على العقل فإن كل اختيار يكون ضربا من الضعف والإكراه، ويستحيل إلى حكم اعتباطي يسبح في فراغ فكري [5]

وبعبارة أكثر وضوحا، كلما أنكر الحجاج نفسه كان قويا ناجعا يقدم النص نفسه على أنه نص موضوعي محايد لا يعرض إلا الحقائق ولا يسعى الى فرض فكرة أو موقف بلباس المحلل الرصين أو المتحدث الموضوعي، في المستوى الظاهر ونزوع إلى المخاتلة والخداع في المستوى الباطن.

ج – التوجيه:

إن كل ما في النص منتقى بدقة وحرص على توجيه المتلقي وقيادته الى غاية واحدة أو وجهة واحدة في النص هي الفكرة المراد الإقناع بها، أو السلوك الذي يروم الباث حمل المتلقي على إتيانه فلا مجال للاعتباطية ولا مكان للصدفة بل كل مفاصل النص وكل دقائقه وأساليبه إنما توجه المتلقي الوجهة المنشودة أو بعبارة أخرى نص يحمل طموحا الى تغيير الأفكار و المواقف والسلوكات.

د– الاستدلال:

إذا أعدنا النص إلى أبسط صوره سنجده ترتيبا عقليا للعناصر اللغوية؛ ترتيب يستجيب لنية الإقناع بفكرة ما، أو مجموعة من الأفكار ، ولتبين كذلك في مستوى الإدراك أنه تخطيط منطقي عقلي قائم على البرهنة ، وما دام الحجاج هو كل منطوق به موجه إلى الغير لإفهامه دعوى مخصوصة يحق له الاعتراض عليها [6]، فإن مجال الاتفاق حول الفكرة محل الإقناع ليس واضحا بما فيه الكفاية ؛ مما يجعل مجال الحجاج مجالا للشبيه بالمعقول والمحتمل الذي ينفلت من كل الضروريات الحسابية ، إذ أن طبيعة المداولة والحجاج ، تتعارض مع الضرورة والبداهة،لأننا لا نحاج ضد البداهة ، ولا نتداول حينما يكون الحل ضروريا كما أنه ليس مجرد إجراء بسيط يسلكه فرد أو مجموعة لدفع مستمع ما إلى تبني موقف ، اعتمادا على تجميع الإثباتات أو الحجج[7].

ولما كان الفعل الإقناعي أحد أشكال الفعل الإدراكي ، المتعلقة بمقام التلفظ ، فإن تحقيق هذا المسعى رهين طبيعة وشكل النص الذي يهيئه الباث، والذي يشترط فيه الانسجام لضمان تعرف المتلقي عليه واعتقاده بمحتواه[8]. كما تتبلور في استدعاء المتكلم لكل أنواع الصيغ والطرق والاستراتيجيات التي تهدف إلى أن يكون التواصل فعالا ومقبولا لدى المتلقي[9]، ويشكل التناص عصب هذه الاستراتيجيات فما هو التناص وما هي آلياته الحجاجية.

2– مفهوم التناص:

يفيد تتبع التعريفات المختلفة لمصطلح التناص أن النصوص تحيل إلى نصوص أخرى سابقة لها في الوجود، وأن النصوص تتسرب إلى داخل النص لتجسد المدلولات سواء كان الكاتب على وعي بذلك أو لم يكن[10].

فمحمد مفتاح يذهب إلى أن : «التناص هو تعالق (الدخول في علاقة) نصوص مع نص حدث بكيفيات مختلفة»[11] و يرى فيه ظاهرة لغوية معقدة يصعب ضبطها وتقنينها، إذ يعتمد في تمييزها على ثقافة المتلقي ومعرفته الواسعة وقدرته على الترجيح مع الاعتماد على مؤشرات في النص تجعله يكشف عن نفسه.[12]

وهو في رأي عبد الله الغذامي حتمية لأن كل نص محكوم بالتداخل مع نصوص أخرى [13]، ولا يعني هذا الاعتماد عليها اعتمادا كليا أو محاكاتها محاكاة مطلقة، بل غالبا ما يتجسد هذا التداخل من خلال الاختلاف و التنافس مع هذه النصوص ، أو بمعنى آخر هو في حالة صراع معها.[14]

يضاف إلى ذلك أن النص لا يكتفي بالأخذ من النصوص السابقة ، بل يأخذ منها ويعطيها في آن واحد، وبالتالي فهو قد يمنح النصوص القديمة ، تفسيرات جديدة كانت خافية، لم يكن ممكنا الالتفات إليها لولا التناص[15] بمعنى أن تكون دلالتها في المتن الجديد أفضل من النص السابق.

فالنص متجدد متغير من خلال تشكلاته مع النصوص الأخرى ، مفتوح على النصوص ماضية وآتية في آن[16] ، إلا ما يهمنا هو ما ذهبت إليه جوليا كريستيفا توصيفه على أنه يتشكل من« تركيبة فسيفسائية من الاستشهادات، وامتصاص و تحويل لنصوص أخرى»[17] فعبارة تركيبة فسيفسائية يدل على نوع من التنظيم في آلية التناص ، ثم وصفتها بالاستشهادات وكأن التناص كان الهدف من توارده في النصوص هو التحاجج بالأدلة قصد الإقناع، والتعبير نفسه نجده عند رولان بارت من قوله:« ليس إلا نسيجا جديدا من استشهادات سابقة»[18].وفي هذا الحصر الذي نجده في كلام بارت إقرار بأن التناص وسيلة الحجاج الأساسية في النص .

3- آليات التناص الحجاجية:

كانت مهمة الباحث في موضوع التناص في الدراسات النقدية هي الكشف كيفية تداخلات النصوص، ورصد العلاقات القائمة بينها، إضافة إلى الكشف عن مدى إسهام النصوص الموروثة في توليد النص، أو عن مدى إسهام هذا الأخير في إبراز النصوص السابقة له، وإظهار ما كان خافيًا منها، والتساؤل عن قدرته على توليد نصوص آتية. أما في إطار البحث الحجاجي فإن مهمته الأساسية تكمن في رصد الاستراتيجيات التي يستخدمها النص لتحقيق غاياته من المتلقي.

الترسيب والتحويل:

ولأن النص الجديد يقوم بهضم النصوص التي سبقته وتمثلها وتحويلها[19] ، أو يعتمد على تحويل النصوص السابقة ومراكمتها في نص موحد يجمع بين الحاضر والغائب بطريقة تتناسب والخلفية المعرفية لكل قارئ مبدع[20]. فإن الآليات التي يبني بها التناص حجاجيته في أي نص تقوم على مفهومين أساسيين:هما الترسيب والتحويل.

أ- الترسيب والتمثل :

يكتسب كل نص ما يحققه من معنى بحذقه ووعيه لكل ما كتب قبله في نوعه من نصوص رفيعة، كما أنه يشير من الناحية الحجاجية إلى أن النصوص الغائبة مكونات لشفرة خاصة يساعدنا وجودها من فهم ، وفض بعض مغاليق النظام الإشاري للنص الذي نتعامل معه[21] ، كما يشير إلى« وجود صلة وصل جامعة بين الناس استناداً إلى مرجعيات روحية واقتصادية وثقافية عامة»[22].

يضاف إلى هذا أن التناص ليس فقط نوعا من توظيف العلاقة المحددة التي يعقدها نص ما مع النصوص السابقة ، ولكنه يتجاوز ذلك إلى تحديد إسهامه في البناء المنطقي لثقافة ما ، وإلى استقصاء علاقته بمجموعة الشفرات التي تجعل قيامه داخل ثقافة ما أمرا ممكنا ومقبولا[23].

على هذا الأساس يتفق الباحثون على أن النص ليس نتيجة لتلفظ فردي، إنما هو محل تقاطعات لا تحصى من النصوص والخطابات الاجتماعية[24] حيث لا تتشكل المادة التي يبنى عليها من خلال رؤية الكاتب وحده، بل تتشكل من مجموع استدعاءات خارج نصيه يتم إدماجها وفق شروط بنيوية خاضعة للنص الجديد، فميشال فوكو يؤكد في تقديمه لمفهوم التناص على أنه لا وجود لما يتولد من ذاته، بل من تواجد أصوات متراكمة ، متسلسلة ومتتابعة[25]، فالتناص يتصل بعمليات الامتصاص ، لعديد من النصوص الممتدة بالقبول أو الرفض في نسيج النص الأدبي المحدد[26].

ولاشك أن أنواع التناص وأشكاله تحدد انطلاقا من مصادر النص نفسه كالقصص الشعبي والأساطير، والمصادر الدينية والأيديولوجيات ، والمسكوكات اللفظية والأشعار والوقائع والشخصيات بمختلف توجهاتها، وكل ما له قابلية في أن يخدم الجانب الإقناعي الحجاجي للنص ، فإن تركز الاهتمام حول الموضوع مادة التناص كان دينيا وأسطوريا وأدبيا وغيرها، أما إذا كان التركيز على علاقته بالنوع الأدبي فإن كان في النوع الواحد مثل الرواية سمي تناصا داخليا، وإن تجاوز النوع كان خارجيا[27] ، أما إذا كانت علاقة النص مع النصوص الأخرى علاقة ظهور وخفاء حسب تعبير جيرار جينيت[28]، فإن التناص يكون مباشرا وغير مباشر[29].

ب- التحويل:

يتبع الاستدعاء والترسيب عملية تحويلية معقدة تصهر وتذيب مختلف النصوص والحقول المندمجة مع النص المتشكل أو المنتج، مما يجعل النص إنتاجيا منفتحا على مراجع خارج نصية يمكن أن تدرك في مستوى التناص.

ويحتل التحويل transformation مكانة مهمة في الممارسات التي تخضع لها عمليات التناص أو العلاقة بين النص السابق والنص اللاحق وذلك لأسباب تتعلق أساسا بنا تحمله تلك الممارسات من تاريخ طويل من حيث الجانب القيمي، وكذا الجمالي لنصوصها بالإضافة على تعدد الإمكانات التي يمنحها التحويل في علاقته مع النص السابق[30].

في هذا المجال ، تتلقى النصوص بشكل عام سواء كانت أدبية أم غير أدبية ، أنواعا من التحويل في جوانب مختلفة من حيث الكم وصيغة العرض ونظام القيم، ففي مجال الكم يمكنها أن تتلقى نوعين متناقضين من التحويل الكمي الذي لا يتلقى النص من خلالهما أي تعديل على مستواه الموضوعي، ويتمثلان في تقنيتي التوسيع والتقليص ؛ حيث يمكن القول إن تقليص أو توسيع نص ما، معناه إنتاج نص آخر انطلاقا منه، أكثر قصرا أو أكثر طولا لا أكثر[31].

أما صيغة العرض la Transmodalisation فتعني كل تعديل يمس طريقة التمثيل الخاصة بالنص السابق وهو ما يعني الاختلاف بين النص الحاضر والنص الغائب في تقنيات العرض ؛ فلصيغة العرض أهمية قصوى في تأطير دلالة النص ومنه التأثير في المتلقي من خلال خرق أفق توقعه ومفاجأته بطرق في العرض لم يألفها[32] .

أما ما يخص التحويل الخاص بنظام القيم La Transvalorisation فهي عملية يتم فيها اشتغال النص اللاحق على القيمة الخاصة بالنص السابق، تمنح فيها دورا أكثر أهمية في نظام قيم النص اللاحق مما كان لها في النص السابق ، وذلك عبر تحويل تداولي أو إلغاء تلك القيمة، أو إعطاءها دورا أقل أهمية مما منح لها في النص السابق، وهذا الإجراء بوجهيه الإيجابي والسلبي معا يشكلان التحويل القيمي المتعلق بتقييم ما ليس له قيمة ، وإهمال ما له قيمة في النص السابق [33].

وخلاصة القول إن التناص وسيلة من الوسائل الحجاجية الهامة ، بالنظر إليه من زاوية الاستشهاد بالنصوص السابقة؛ استشهادا مباشرا أو ضمنيا من ناحية ، ودوره في توجيه رأي المتلقي من ناحية ثانية ، ولعل الخبرات التي يرصدها في النصوص السابقة ، ويجسدها في النص الحاضر بتقنيات عالية الجودة والإبداع الدليل المطمئن على هذه الأهمية.

إحالات و مراجع

1- ينظر، أبو بكر الغزاوي ، الخطاب والحجاج ، الأحمدية للنشر ، الدار البيضاء ،ط1، 2007، ص: 9

2- نفسه، ص : 27

3 – ينظر، سامية الدريدي الحسني ، دراسات في الحجاج ، عالم الكتب الحديث ، تونس ،ط1، 2013، ص :7-8

4- ينظر، سامية الدريدي، الحجاج في الشعر العربي القديم من الجاهلية إلى القرن الثاني للهجرة :بنيته ، وأساليبه، عالم الكتب الحديث ، ط1 ، 2008، ص: 26

5 -Chaïm Perlmane et Lucie Olbrechts Tyteca , Traite de l'argumentation p : 682

6 – ينظر، طه عبد الرحمان ، اللسان والميزان والتكوثر العقلي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء ،ط2، 2006، ص226.

7- ينظر، محمد طروس ، النظرية الحجاجية من خلال الدراسات البلاغية والمنطقية واللسانية ، دار الثقافة الدار البيضاء ،ط1، 2005، ص: 8

8 – ينظر، الحجاج في الخطابة النبوية عبد الجليل العشراوي، عالم الكتب الحديث للنشر والتوزيع، الأردن ط1، 2012 ،ص: 27

9 – ينظر، حافظ اسماعيلي ومحمد أسيداه ، اللسانيات والحجاج ، الحجاج المغالط : نحو مقاربة لسانية وظيفية ، ضمن كتاب الحجاج مفهومه ومجالاته ، عالم الكتب الحديث ، الأردن،ط1، 2010 ،ج3، ص:270

10 – ينظر، خليل الموسى، قراءات في الشعر العربي الحديث والمعاصر ، من منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق ، 2000 م، ص: 133

11- محمد مفتاح ، تحليل الخطاب الشعري(إستراتيجية التناص)، الدار البيضاء، دار التنوير للطباعة والنشر، ط1 ، 1985م ،ص:119

12- نفسه، ص: 121

13 – ينظر، عبد الله الغذامي، ثقافة الأسئلة" مقالات في النقد والنظرية" ، جدة، النادي الأدبي الثقافي، ط2 ، 1992م، ص:111

14 – ينظر، محمد عمان الجائري ، تخصيب النص، أمانة عمان الكبرى، ط1، 2000م،ص:25

15 – ينظر، عبد الله الغذامي، الخطيئة والتكفير من البنيوية إلى التشريحية، جدة ، النادي الأدبي الثقافي، 1970 ، ص:320

16 – ينظر، حسين العمري ، إشكالية التناص، مسرحيات سعد الله وموسى نموذجا، دار الكندي، إربد، ط1، 2000 ص: 30

17- جوليا كرستيفا علم النص، ، تر :فؤاد زاهي، الدار البيضاء، دار توبقال للنشر 1991م، ص:79

18 – رولان بارت ، نظرية النص ضمن كتاب آفاق التناصية ترجمة خير الدين البقاعي، الهيئة المصرية للكتاب، 1998 ،ص: 142

19- ينظر، عبد الستار الأسدي ،ماهية النص ، الشارقة، مجلة الرافد، ع 31 ، 2000، م، ص: 14

20 – ينظر، مصطفى .السعدني ، التناص الشعري قراءة أخرى لقضية السرقات، منشأة المعارف المصرية،مصر،1991، ص:8

21 – ينظر، محمد سالم محمد الامين الطلبة مستويات اللغة في السرد العربي المعاصر دراسة نظرية في سيمانطيقا السرد ، مؤسسة الانتشار العربي، بيروت، ط1، 2008، ص:15

22- عز العرب ينابي ، الحجاج والتبادل والتفاعل في ضوء في فلسفة القيم، ضمن كتاب الحجاج مفهومه ومجالاته دراسات نظرية وتطبيقية في البلاغة الجديدة ، ج3، الحجاج وحوار التخصصات ،ص: 129

23- نفسه: 15

24- ينظر، محمد القاضي وآخرون، معجم السرديات، دار محمد علي للنشر والتوزيع، تونس،ط1، 2010، ص: 114

25 – ينظر، سعيد علوش ، المصطلحات الادبية ، منشورات المكتبة الجامعية ، الدار البيضاء ، 1984، ص: 123

26 – ينظر، علاء الدين رمضان السيد ، ظواهر فنية في لغة الشعر العربي الحديث ، منشورات اتحاد الكتاب العرب ، دمشق ، 1996، ص :111

27- ينظر، تحليل الخطاب الشعري استرتيجية التناص، ص: 124

28 -G. Genette, Palimpseste, la littérature au second degré seuil, 1982, p:07

29- ينظر، دراسات في النص والتناصية ، ص: 127

30- ينظر، سليمة عذاوري ، شعرية التناص في الرواية العربية، رؤية للنشر والتوزيع، القاهرة ،ط2012،1، ص: 84

31- نفسه، ص: 87.

32-Palimpsestes , p :348

33- المرجع السابق ، ص: 89.